

مقوله التجديد في القصيدة

يتعدد كثيراً في الأوساط الأدبية المحلية وحتى العربية مقوله «إن الجيل الحالي من الشعراء أعاد للقصيدة العامودية رونقها، وبعث فيها روح كلاسيكية جديدة، فبتنا نسمع بين الفينة والأخرى، أن هذا الشاعر جدد من صورها الشعرية، وذاك في مصاينها ومعاينها، وآخر منحها شيئاً من واقعية الحياة ودينا ميكيتها، وهكذا جرى الأمر، حتى كأنه بدا انتصاراً على أشكال أخرى من الكتابة، وبالخصوص «قصيدة النثر» التي تراجع البعض من كتابها عن الحراك الأدبي إنتاجاً وحضوراً مقارنة بفترة التسعينات، إزاء الحضور المكثف لشعراء القصيدة العامودية حضوراً وإنتاجاً ومشاركة.

وهذا لا يعني فيما يعنیه أن ثمة صراعاً قائماً بينهما للغاء أحدهما الآخر، أو أن الإيمان مفقود بحرية الكتابة في الأجناس الشعرية المختلفة لدى الطرفين، بل العكس هو المهيمن على الساحة المحلية الآن، وهو تقبل الآخر بما هو عليه في قناعاته الأدبية وكتاباته الإبداعية، وهذا التقبل بدا لي أنه ينسحب على الآخر الفكري والعقائدي أيضاً، فالشعراء الشباب من كتاب القصيدة الكلاسيكية أكثر مرونة وأيضاً تذوقاً للقصيدة الحديثة مقارنة بالفترات السابقة (الثمانينات والتسعينات) والعكس أيضاً هو الصحيح.

لكن المفارقة الصارخة ضمن هذا الإطار، يتصل بالوضع الاجتماعي والثقافي والأدبي الذي كان قائماً في كلتا الفترتين، ففي الثمانينات وما تلاها عندما كانت الذائقه الأدبية للصحوة هي المهيمنة على ثقافة المجتمع باعتبارها ذائقه لا تعترف بالأشكال الأخرى في الكتابة الشعرية، ولا تعترف بالحرية المرتبطة بالإبداع، فقد بدت هذه الذائقه القوة الناعمة التي تسللت إلى عقول وأذهان الكثير من النساء والشباب عبر مراكز مختلفة من قوى المجتمع: المدارس، الجامعات، المراكز التطوعية والخيرية، الفعاليات والأنشطة المنبرية، بينما في ذات الفترة كان شعراء الحداثة يكتبون نصوصهم وقصائدهم، ويشاركون بكثرة في فعاليات مختلفة، وذلك بإصرار وإرادة وجرأة تنم عن إيمان عميق بالشكل الشعري الذي يكتبون به، رغم الحمار والتهميش وعدم الاعتراف.

لكن ما حدث لا حقاً كان العكس تماماً، فعندما أخذت ملامح ثقافة الصحوة تتلاشى شيئاً فشيئاً، بفعل

رؤية 2030 وما صاحبها من تحولات ثقافية واجتماعية كان أساسها الانفتاح على ثقافة العالم بكل مكوناته الثقافية والفكرية والأدبية، كان من بين هذه التحولات «الذائقة الأدبية» (وعندما أركز على تحول الذائقة تحديداً لأن طاولة التحول عندها بارزة للعيان بخلاف التحولات الأخرى التي لم تخترها بعد، فثمة ما هو تحت السطح كامن في العمق) الذي كان أكبر ممثليها هم الجيل الحالي من الشباب سواء من يكتبون القصيدة العامودية أو الأشكال الأخرى.

لكن اللافت للنظر أن الذين يكتبون العامودي هم الأنشط والأكثر حضوراً وفاعلية، وذلك ما يعزز من فرضيتي التي مفادها: أن التحولات الاجتماعية والثقافية والأدبية التي أسست لها رؤية 2030 لم تؤد فيما أحسب إلى التجديد في الشكل الشعري بما يواكب أو يوازي تلك التحولات، باعتبار مساحة الحرية المتشابكة، وعليه اختفى الشعراً المغامرون الذين كانوا يرفعون شعار المغامرة في الكتابة منذ الثمانينات، وامتلأت الساحة بدلاً منه بمقولة التجديد من خلال «وهم» تجديد القصيدة العامودية.

ما أقوله حول هذه المفارقة لا يعني تقييم هؤلاء الشعراء من كتاب العامودي أو وضعهم في خانة التبخيس، بل كل ما أردته هو وصف هذه المفارقة حسب ما أراه من وجهة نظرى تحديداً، وإثارة الساحة الأدبية بالأسئلة والملحوظات.

وعندما أمنع كلمة «وهم» مجاورة لكلمة التجديد، فلا يعني بالنسبة لي موقفاً مسبقاً من القصيدة العامودية أو الإيقاعية، فهناك أسماء شعراً وأصدقاء عزيزين عندي يكتبونها بصفاء الشاعرية وروعه الصياغة وخفة الإيقاع. لكن معنى التجديد في أفق الكتابة الأدبية بشكل عام، خصوصاً ما يتعلق منها بالأشكال الشعرية، لا يرتبط فقط بتحولات الذائقة عند المبدع نفسه، أو حتى انفتاح ثقافة المجتمع وتفاعلاته معه، بل هناك الجانب الأكثر موضوعية في معنى التجديد القائم على العلاقة الجدلية بين الفرد المبدع من جهة، والمجتمع وثقافته ولغته وتحولاته الحياتية من جهة أخرى. ولا يمكن لهذه العلاقة التأثير العميق في أشكال التعبير الأدبية والفنية إلا بوجود أحداث كبرى تزلزل كيان المجتمعات من الجذور، وتلقيها في متأهله من الضياع والتشتت ومساءلة الحدث نفسه والذات نفسها كما حدث للمجتمعات الأوروبية مع الفكر والأدب بعد الحرب العالمية الثانية.

لكن دعوني أدلل على التجربة الإبداعية السورية بعد المأسى التي مروا بها طوال إحدى عشرة سنة بعد ثورتهم التي أجهضت منذ عام 2011م.

لقد حدث شرخ في المجتمع السوري أدى فيما أدى إليه إلى ميلاد علاقات جديدة: بين الإنسان ونفسه، الإنسان وقيمه الاجتماعية، الإنسان ولغته وتعابيره الفنية والأدبية. فمن بين علاقاته تلك، كانت علاقته بالموت التي انبنت أساساً على ثيمة الألم الإنساني، فقد أظهر جيل هذه المأساة علاقة بالموت، أقل ما يقال عنها أنها تهكمية، متألفة معه حد الصداقة بعض الأحيان، الأمر الذي لم يكن مألوفاً فيما سبق في تجارب ما قبل الثورة. يقول على سبيل المثال الشاعر السوري حكمة شافي الأسعد: «في المساء وأنت تجمعون أعداد الموتى من نشرات الأخبار، تأكروا أنني لا أمازح الموت... ولا أنا قشه، فاسمي على إحدى قوائمه، وأما منا عمل طويل وجاد حتى يحيى ذلك».

قد يتساءل البعض ليس شرطاً أن تحدث مأساة كبرى حتى يتم التجديد؟ وإذا تم ليس شرطاً أيضاً أن يتم ضمن شكل محدد في التعبير الشعري؟

صحيح هذا الكلام في كلا الشرطين. لكن صحيح أيضاً أن مجتمعنا العربي تواقة إلى آفاق أرحب تعيد وصله بتاريخه وبحاضره في آنٍ واحد. وليس أقرب إلى ذلك سوى الكتابة الإبداعية على مستوى الوجود الشخصي للإنسان.